

دمشق

في كتاب المؤلفين الكلدانيين والعرب

بفهم جورج هداد

« خلاصة المقال المنشور باللغة الانكليزية »

ذكرت مدينة دمشق كثيراً في كتابات مختلف مؤلفي العصر الهلنستي الروماني . وسنقتصر في هذا المقال على ما كتبوه في شرح اسم مدينة دمشق وفي بيان اهميتها مع مقارنة ذلك بما كتبه بعض مؤرخي العرب وجغرافيتهم . فقد عثرنا على تفسير غريبة لاسم دمشق في بعض كتب اليونان . وهذه التفسير تقوم على احد امرين اولهما تفسير اسم المدينة باسم مؤسسها او باسم احد الأبطال او الآلهة الذين لهم علاقة بها وهذا شائع جداً بين الكتاب الأقدمين وكذلك بين الكتاب العرب . وثانيهما تفسير الاسم عن طريق الاشتقاق من فعل او حادث كما سنرى .

فقد روى ستيقانوس البيزنطي الذي عاش في القرن السادس الميلادي ان اسم مدينة دمشق يرجع الى ان البطل دمشق (دمسكوس) ابن الآلهة هرمس نزع من اركاديا في بلاد اليونان الى سورية حيث بنى مدينة باسمه . وفي رواية اخرى يقول ان اسم دمسكوس يرجع الى البطل آسكوس الذي ربط الآلهة ديونيسيسوس وطرحه في النهر ولكنه عوقب على عمله بان سلخ جلده وصار يستعمل لحفظ الحبوب . وفي رواية ثالثة يقول ان السبب في تسمية دمشق هو ان رجلاً قطع بسكينه شجرة الكرم التي زرعها الآلهة ديونيسيسوس في سورية ، ولكن ديونيسيسوس لحق به وعذبه بان سلخ جلده وجعله زقاً للخمر ومن ذلك أتى اسم « دمسكوس »

ملاحظة : انظر مراجع هذا المقال في هوامش النص الانكليزي في القسم الغربي من المجلة .

وهو مؤلف من كلمتين « درما » اي جلد « واسكوس » اي وطاء من جلد ، وفيما بعد سقط حرف الراء فأصبحت « دمكوس » .

يلاحظ في هذه الروايات وخاصة في الرواية الأولى والثانية ان آلهة الميتولوجيا الاغريقية واباطها قد نقلت الى سورية واعتبرت مؤسسة لمدينة هامة كدمشق . وان نقل هذه الآلهة على هذا الشكل واطلاق اسمائها على مدينة ليس لها اية صلة بها ليست سوى مظهر من مظاهر انتشار الحضارة اليونانية في بلاد الشرق في زمن خلفاء الاسكندر ، وهي تشبه العملية المماثلة التي بموجبها اطلقت اسماء آلهة يونانية على آلهة الشرق واسماء مدن يونانية ومكدونية على بعض المدن السورية القديمة التي كانت لها اسمائها المعروفة .

وإذا قارنا عمل بعض كتاب اليونان بشرح اصل اسم مدينة دمشق على هذا الشكل بما فعله بعض المؤلفين العرب فانتا نجد ان هؤلاء لجأوا الى نفس الأسلوب ولكنهم استبدلوا الأسماء اليونانية بأسماء سامية . فياقوت الذي عاش في القرن الثالث عشر يورد رواية تقول بان دمشق سميت باسم « دماشق بن قاني بن مالك بن ارفخشذ بن سام بن نوح » (يلاحظ ان دمشق قد وردت بشكل « دماشق » في الأصل العبري لسفر التكوين ١٤ : ١٥) . وفي رواية اخرى يقول ياقوت « ان العازر غلام ابراهيم بنى دمشق وكان حبشياً وحبه له عمرو بن كنعان حين خرج من النار وكان الغلام يسمى دمشق فسمها باسمه » . وهذه الرواية ايضاً يعطينا اياها ابن عساكر مؤرخ دمشق الذي عاش في القرن الثاني عشر . وقد ورد ذكر العازر هذا في سفر التكوين (١٥ : ٢) باسم أليعازر الدمشقي مالك بيت ابراهيم . على ان ياقوت من جهة اخرى لا يكتفي بنسبة المدن الشرقية العريقة الى اسماء مؤسسين شرقيين بل ينسب بعض المدن التي اسسها المكدونيون مثل انطاكية الى مؤسسين من سلالة سام بن نوح فيقول : « وقيل اول من بناها وسكنها انطاكية بنت الروم بن اليقن بن سام بن نوح » .

اما الرواية الثالثة التي أتى بها ستيفانوس البيزنطي عن اصل دمشق فقد سماها ترومبل (في موسوعة العلوم الكلاسيكية باللغة الالمانية) اسطورة لغوية بطلها شخص يرمز الى مناهضة عبادة الآلهة ديونيسوس الآلهة الكرمية . وعلى كل فان حرف الراء في « درمسكوس » يظهر في بعض اسفار التوراة الأخيرة حيث تذكر دمشق بشكل « درمسق » (سفر اخبار الأيام الأول ١٨ : ٥) ولكنها تذكر بشكل « دومسق » وأحياناً « دموسق » في اسفار اخرى .

ثم ان كتاب اليونان يأتون بتفسير آخر لاسم دمشق وهو يتعلق بشخص « دماس » الذي قالوا عنه انه اسم مؤسس المدينة . فقد ذكروا ان دماس رافق الآله ديونيسوس الى سورية وانه اهداه خيمة (باليونانية Skéné) . فقالوا خيمة دماس (باليونانية Damaskéné) .
والشيء الذي يجدر ذكره ان هذه التفسيرات اليونانية لاسم دمشق ان كانت عن طريق الاشتقاق او عن طريق اسماء المؤسسين لم يجهلها كتاب العرب وقد رووا تفسيرات مماثلة .
فقد أتى ابن عساكر في كتاب تاريخ مدينة دمشق بعدد كبير من الروايات المتعلقة باصل اسمها ، ونجد بينها رواية تقول بان « دمشق بناها دمشقي غلام كان مع الاسكندر » .
وفي رواية اخرى نجد تفسيراً لغوياً اشتقاقياً يقول فيه : « سمعت أبا بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد الفرضي ي بغداد وكان أسروني ببلاد الروم مدة ان رجلاً من حكماء الروم قال له انما سميت دمشق بالرومية وان اصل اسمها دوومسكس اي مسك مضاعف لطبيعتها لأن دوو للتضعيف ومسكس هو المسك ثم عربت ف قيل دمشق والله أعلم » . ومن جهة اخرى فان ياقوت يعطينا تفسيراً لغوياً لاسم دمشق فيقول : « قيل سميت في ذلك لانهم دمشقوا في بنائها اي اسرعوا وناقة دمشق اي سريعة » .

اما بشأن اهمية دمشق فقد كان يدرك كتاب العصر الهلنستي الروماني هذه الأهمية الا انهم لم يبالغوا فيها كما فعل كتاب العرب فيما بعد . فالأساطير التي رووها عن اصل تسميتها والتي تشترك فيها الآلهة والأبطال هي من مظاهر تلك الأهمية . وقد ذكر بعض الكتاب علاقة ابراهيم بمدينة دمشق وربما كان مصدر قولهم هذا العهد القديم . ويذكر يوسفوس الذي عاش في القرن الاول الميلادي ان في ضواحي دمشق قرية تسمى بيت ابراهيم . ومن جهة اخرى فقد رأينا ان ياقوت يورد رواية تقول : « وفي الأخبار ان ابراهيم ولد في برزة في غوطة دمشق » وقد تكون برزة هي القرية التي عناها يوسفوس .

على انه بينما نجد كتاب العصر الهلنستي الروماني يقتصرون تقريباً على ذكر ابراهيم في معرض كلامهم عن دمشق فان المؤلفين العرب يكادون لا يتركون نبياً ولا شخصية هامة في التوراة والقرآن الا ويجعلون لها صلة بدمشق . فقد روى ياقوت « ان آدم وحواء وقايل وهايل نزلوا في اماكن حول دمشق » كما انه يروي قصة قتل قايل لهايل على جبل قاسيون المشرف على دمشق . ومن جهة اخرى يورد رواية بان مكان دمشق كان داراً لنوح ، وان « اول حائط وضع في الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران » ، وهذه الرواية الأخيرة يوردها بتفصيل اكثر ابن عساكر . كذلك ينقل ياقوت رواية تقول « ان هوداً نزل دمشق

واسس الحائط في قبلي جامعها » ثم يورد ماروي عن النبي انه قال « ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء من شرقي دمشق » ، وهذه الرواية يوردها ايضاً ابن عساكر . وعلى هذا فالتا نجد ان الكتاب العرب قد اصرروا على اهمية دمشق الدينية الأمر الذي لم يذكره كتاب العصر السابق ، وابن عساكر يملأ أكثر من مائة صفحة في رواية الأحاديث المتعلقة باهمية دمشق من الناحية الدينية ويرتب هذه الأحاديث في ابواب منها « باب ان الايمان يكون بالشام عند وقوع الفتن وكون الملاحم العظام » ، ومنها « اختصاص الشام من غيره من البلدان بما ينبسط عليه من اجنحة ملائكة الرحمن » ، ومنها « ان الشام عند وقوع الفتن مقر دار المؤمنين » .

ومن جهة اخرى فالتا نرى ان دمشق قد ذكرت في العهد الجديد وفي كتابات المسيحيين الأولى وخاصة فيما يتعلق باقامة بولس الرسول . وازداد ذكرها في الكتب اليونانية المسيحية عندما اصبحت في الدرجة الثانية في بطريركية انطاكية .

وإذا عدنا إلى الكتاب الكلاسيكيين فالتا نجد انه مع عدم اهتمامهم بدمشق من الناحية الدينية يذكرون لها بعض النواحي الأخرى . وهناك روايتان عن اهميتها العامة . فالأولى أتت بها الجغرافي سترابون الذي عاش في القرن الأول ق . م حيث يقول : « لا تزال دمشق حتى اليوم على جانب عظيم من الأهمية ، وفي زمن الحكم الفارسي كان يمكن اعتبارها اشهر مدينة في هذا القسم من آسية » ، واما الرواية الثانية فهي ما قاله الامبراطور يوليانيوس في القرن الرابع الميلادي إذ سماها « عين الشرق كله » . وهناك كتاب آخرون ذكروا اموراً معينة منهم فوسيدونيوس الأقامي في القرن الثاني ق . م الذي تكلم عن خمرها الشبيه بخمر حلبون (وكان يؤتى بخمر حلبون النفيس إلى مأدة ملك الفرس في سوزا) . ويتكلم بلينيوس عن خصب ضواحي دمشق وعن خوخها الممتاز . كذلك يذكر كتاب آخرون مثل أميانوس في القرن الرابع وملاّس في القرن السادس اهميتها السياسية والعسكرية وخاصة في عهد ديوكليسيان عندما اسست فيها معامل للأسلحة ومستودعات للوازم الحربية . وهناك كتاب ومؤرخون مثل يوسيفوس وديودورس الصقلي ، وفلو طرخوس وغيرهم يذكرون حوادث من تاريخها ولكن يقتصرون على العصر السلوقي والروماني ، فيما سوى يوسيفوس الذي يعود إلى العصر الآرامي وينقل كثيراً من معلوماته عن العهد القديم في التوراة . على ان العبارات التي تحتويها كتابات العصر الهلنستي الروماني عن مميزات دمشق وخصبها

وموقعها قليلة بالنسبة لما ذكره كتاب العرب ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لما بلغته دمشق بعد الفتوحات الإسلامية وخاصة في عهد الدولة الأموية . فقد أشاد ابن عساكر وياقوت بذكرها واختص ابن عساكر برواية الأحاديث النبوية عنها فروى عن رسول الله أن « أربع مدائن من مدائن الجنة وأربع مدائن من مدائن النار . فاما مدائن الجنة فمكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق واما مدائن النار القسطنطينية وطبرية (وفي رواية أخرى رومة) وانطاكية وصنعاء » . ومن الأحاديث ان « الخير عشرة أعشار تسعة بالشام وواحد بسائر البلدان » . ومنها « ان الشام صفوة الله من بلاده اليها يجتبي صفوته من عباده فمن خرج من الشام الى غيرها فبسخطه ومن دخلها من غيرها فبرحمته » .

ويوجز لنا ياقوت اسباب أهمية دمشق فيقول : « هي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عماره ، ونضارة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه ، ووجود مآرب » ثم يجمع كلامه عن دمشق فيقول : « وجلة الأمر انه لم توصف الجنة بشيء الا وفي دمشق مثله ، ومن المحال ان يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقها الا وهو فيها أوجد من جميع البلاد » . ويذكرنا كلام ياقوت هذا بكلام ليبانيوس الانطاكي الذي امتدح مدينته في القرن الرابع في خطبته الحادية عشرة المشهورة بالرغم ان ياقوت لم يكن قصده كتابة مقال في امتداح دمشق بل اقتصر على تدوين ما اتصل به من أمرها في صفحات قليلة من معجمه .

والخلاصة انه وردت قصص وتفسير غربية لاسم دمشق في كتابات العصر الهلنستي الروماني وفي المؤلفات العربية ، وذكرت شخصيات هامة ذات علاقة بدمشق ، كما ذكرت أهمية دمشق بوجه الاجمال من قبل كتاب العربية واليونانية في العصور الإسلامية وفي العصور التي سبقتها ، غير ان ما ذكره كتاب العصور التي سبقت الاسلام كان أقل بكثير مما ذكره كتاب العصور الإسلامية وكان يحمل - خاصة في تفسير اسم دمشق - أثر عملية التمازج بين الحضارة اليونانية والحضارة الشرقية في بلاد غربي آسية ، وهذا الأثر لم تخل منه بعض تفسير الكتاب العرب أنفسهم .